

أَنْتَ مَا تَبْحَثُ عَنْهُ

د. أحنف الجاجة

قبل أن تقرأ

هذا المقال ليس معلومة. ليس فلسفة. ليس درسًا تحفظه وتمضي.

هذا المقال دعوة أن تتوقف الآن، وتنظر. لا إلى الكلمات، بل إلى ما تشير إليه. إلى ما أنت عليه قبل أن تقرأ السطر الأول.

إن قرأته بعقلك فقط ستخرج بأفكار جميلة. وإن قرأته بكلّيتك ستكتشف أنّك لم تخرج من نفسك أبدًا.

السؤال الذي لا يموت

في مكان ما، ربما في ليلة صامته، أو في لحظة ألم لم تجد لها تفسيرًا، أو في ذروة نجاح لم يُشبعك، سألت:

من أنا؟

لم تسأل عن اسمك. ولا عن وظيفتك. ولا عن دورك في هذا العالم.
سألت عن شيء أعمق: عن ذلك الذي يبقى حين تُسلب منك كلّ الأدوار. عن
ذلك الذي كان موجوداً قبل أن تعرف اسمك، وسيبقى حين تنسى كلّ شيء.
هذا السؤال لا يسأله العقل بل تسأله الروح. والروح لا تسأل إلا حين
تكون مستعدة للجواب.

ما لست إياه

قبل أن تعرف ما أنت تحتاج أن ترى ما لست إياه. ليس بالإنكار، بل
بالمشاهدة:

أنت لست جسديك. الجسد يتغيّر. كان طفلاً ثمّ شاباً ثمّ ما هو عليه الآن،
وأنت الذي يشهد كلّ هذه التغيّرات لم يتغيّر. الشاهد ثابت والمشهود يتبدّل.

أنت لست أفكارك. الأفكار تأتي وتذهب، فرح ثمّ قلق ثمّ خاطرة عابرة،
وأنت الفضاء الذي تمرّ فيه. هل تغيّر الفضاء حين مرّت فيه غيمة؟

أنت لست مشاعرك. الحزن يأتي ويذهب. الخوف يأتي ويذهب. حتى
السعادة المشروطة تأتي وتذهب. وأنت، ذلك الحضور الصامت، تبقى.

فما الذي يبقى حين تسقط كلّ هذه الطبقات؟

ما تجده حين تبقى

حين تسأل "مَن أنا؟" بصدق وتبقى مع السؤال دون أن تقبل أيّ إجابة ذهنية، يحدث شيء:

تجد سكوتًا.

ليس سكوت الفراغ بل سكوت الامتلاء. سكوت فيه حضور. فيه معرفة. فيه يقين لا يحتاج إلى دليل خارجي.

هذا السكوت، هذا الحضور، هذا الإدراك المحض الذي يعرف أنّه موجود بلا أن يحتاج إلى شيء يُثبت وجوده، هذا هو أنت.

ليس فكرة عنك. ليس وصفًا لك. بل هو أنت قبل كلّ وصف وبعد كلّ وصف.

الوجود المطلق

هذا الذي وجدته، هذا الإدراك الصافي، هذا الحضور الذي لا يتغير، ليس "شيئًا" من بين الأشياء. ليس جزءًا من العالم. بل هو ما يظهر فيه العالم.

سمّاه الصوفية: الوجود المطلق.

"مطلق" أي غير مقيد بشيء. لا بزمان ولا بمكان ولا بصورة. ليس هنا أو هناك بل هو "الهنا" ذاته. ليس الآن أو حينها بل هو "الآنية" ذاتها.

وسمّاه القرآن بأسماء كثيرة كلّها تشير إلى حقيقة واحدة:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)

الأول ليس بمعنى أنّه جاء قبل غيره في الزمن، بل بمعنى أنّه ليس هناك "قبل" بدونه. الآخر ليس بمعنى أنّه سيبقى بعد فناء غيره، بل بمعنى أنّه ليس هناك "بعد" بدونه. الظاهر: كلّ ما تراه هو هو. الباطن: وما لا تراه هو هو أيضًا.

لماذا هو السعادة

السعادة التي يبحث عنها كل إنسان، في المال، في الحب، في النجاح، في الراحة، ليست في هذه الأشياء. هذه الأشياء تُعطيك لحظة تتوقف فيها عن البحث، ولحظة التوقف عن البحث هي لحظة العودة إلى ذاتك، وذاتك هي السعادة.

السعادة ليست شيئاً تجده بل هي ما أنت عليه حين تتوقف عن البحث.

لهذا لا تدوم سعادة الأشياء لأن الأشياء تتغير، فتعود إلى البحث، فتعود إلى الشقاء. لكن ذاتك، الوجود المطلق، لا تتغير. فسعادتها لا تنزع.

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

الذكر هنا ليس تكرار كلمات بل هو **التذكر**. تذكر من أنت. تذكر ما أنت عليه أصلاً. والاطمئنان ليس راحة مؤقتة بل هو طبيعتك الأصلية حين تعود إليها.

الإنسان عرش الله

قال ابن عربي:

"الإنسان عرش الله. أعني بالإنسان الوجود المطلق من حيث اعتبار الصورة الإنسانية فيه."

العرش هو ما يستوي عليه الملك. والإنسان، حقيقة الإنسان لا جسده، هو المكان الذي يظهر فيه الله لذاته. أنت المرأة التي يرى فيها الوجود المطلق وجهه.

لهذا خلقك. لا لآثته يحتاج إليك بل لأن المعرفة تحب أن تُعرف. الجمال يحب أن يُرى. الوجود يحب أن يشهد ذاته.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

قال ابن عباس: "إلا ليعرفوني." العبادة في أعلى معانيها هي المعرفة: أن تعرف مَنْ أنت فتعرف مَنْ هو.

لكنني أعيش في عالم

هنا يأتي السؤال الذي يُحيركّ سالك:

"إن كنتُ الوجود المطلق فلماذا عندي ديون؟ لماذا أمرض؟ لماذا أحتاج أن أكل وأنام وأعمل؟ لماذا لا أشعر بهذا السلام دائماً؟"

الجواب: لأنك لست الوجود المطلق فقط بل أنت الوجود المطلق وهو يتجلى في صورة إنسان. والصورة لها قوانينها. الموجة ماء لكنها تتحرك بقوانين الرياح والجاذبية. لم تتوقف عن كونها ماءً لكنها ماء في حالة حركة.

أنت لست مُطالباً بإنكار الصورة. لست مُطالباً بأن تتوقف عن كونك إنساناً. بل أنت مُطالب بأن تعرف وأنت في الصورة أنك لست الصورة فقط.

هذا هو الفرق بين مَنْ يعيش في شقاء ومَنْ يعيش في سلام: الأول يظن أنه الموجة فقط فيخاف من كل ريح. والثاني يعرف أنه المحيط فيتحرك مع الريح بلا خوف.

الصلاة بعد المعرفة

كثيرون يظنون أنَّ المعرفة تُلغي العبادة. أنَّك إن عرفت أنَّك "الوجود المطلق" فلا حاجة للصلاة والدعاء. هذا أكبر خطأ يقع فيه السالك.

الحقيقة: المعرفة لا تُلغي العبادة بل تُحييها.

قبل المعرفة: تصلّي خوفاً أو طمعاً أو عادةً. بعد المعرفة: تصلّي لأنَّ الوجود يعبد ذاته من خلالك. وهذه أعلى صلاة.

النبي ﷺ، وهو أعرف الخلق بالله، كان يقوم الليل حتى تتورّم قدماه. لم تمنعه المعرفة بل هي التي أقامته. لأنّه كان يعرف أنَّ صلاته ليست فعل عبد منفصل يتقرّب إلى ربّ بعيد بل هي تجلّي الحقّ في صورة العبودية. وهذا التجلّي هو الجمال الأعلى.

(وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

أنت تصلي وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى. أنت تدعو وما دعوت
إذ دعوت ولكن الله دعا. أنت تبكي في سجودك وما بكيت ولكن الحب الإلهي
يتجلى في صورة دمعة.

الدعاء: حوار الوجود مع ذاته

"كيف أدعو وأنا أعرف أنه لا منفصل؟"

ادعُ لأنَّ الدعاء ليس اعترافاً بالانفصال. الدعاء هو الوجود يتحدث إلى
ذاته. الموجة تقول للمحيط: "أحتاج"، والمحيط يقول للموجة: "أنا هنا".
وكلاهما ماء واحد.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

تأمل: لم يقل "فقل لهم إنِّي قريب" أسقط الواسطة. كأنَّ القرب لا يحتمل
حتى كلمة "قل". هو هناك حيث أنت قبل أن تفتح فمك بالدعاء.

فحين تقول "يا ربّ سدّد ديني" فالحقيقة أنّ الرحمة تطلب أن تتجلى في صورة فرج. وأنت القناة. ودعاؤك هو الإذن الذي تعطيه للرحمة أن تمرّ من خلالك.

لا تمنع الرحمة بدعوى المعرفة. المعرفة الحقيقية تفتح لا تُغلق.

السلام الذي لا يُنزع

كلّ سلام مشروط سينتهي. سلام المال ينتهي بالخسارة. سلام الصحة ينتهي بالمرض. سلام العلاقات ينتهي بالفراق.

لكنّ هناك سلامًا لا ينتهي لأنّه ليس مشروطًا بشيء. هو سلام الوجود ذاته. سلام ما أنت عليه قبل كلّ شرط وبعد كلّ شرط.

(يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً
مَّرْضِيَّةً)

"المطمئنة" التي استقرت في حقيقتها. "ارجعي إلى ربك" ليس رجوعًا في المكان بل رجوعًا في المعرفة: تذكرني من أنت. "راضية مرضية" الرضا هنا ليس قبولاً بالمصيبة بل هو طبيعة من عرف أن ما يحدث هو تجلي الحق، وأن الحق لا يخطئ.

ليس هناك وصول

وهذا أصعب ما يُقال وأجمله:

ليس هناك مكان تصل إليه. لأنك هناك الآن. ما تبحث عنه هو ما يبحث. من يسأل "من أنا؟" هو الجواب ذاته يسأل عن نفسه.

ليس هناك لحظة مستقبلية ستقول فيها "وصلت!" لأن من ينتظر تلك اللحظة هو الوهم الذي يحجبك عنها.

السلام ليس في نهاية الطريق بل هو الطريق ذاته. هو ما أنت عليه الآن. بنعاسك، بديونك، بأسئلتك، بشكوكك. كل هذا يحدث في السلام لا خارجه.

دعوة

أغلق عينيك لحظة واحدة.

لا تبحث عن شيء. لا تحاول أن تشعر بشيء. لا تنتظر تجربة.

فقط كُن.

هذا الحضور الصامت الذي يقرأ هذه الكلمات الآن، الذي يعرف أنه موجود بلا أن يحتاج إلى دليل، الذي لم يتغير منذ طفولتك رغم أن كل شيء حولك تغير:

هذا هو.

ليس شيئًا تكتسبه. ليس مقامًا تصل إليه. ليس حالة تأتي وتذهب.

هو أنت. كان أنت. وسيبقى أنت.

والسعادة، السعادة الحقيقية التي لا تُنزع، ليست شيئًا تحصل عليه بعد أن "تعرف". بل هي ما كنت عليه دائمًا محجوبًا عنها بالبحث عنها.

توقّف عن البحث.

أنت ما تبحث عنه.

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)